

الأسير المعزول أحمد المغربي.. حكاية فلسطين



اللائين 30 مايو 2011 06:03 ص

كتب: بقلم: فؤاد الخفش

من محياه الجميل تتبعث في روح من التقاه و يلتقيه الحياة، ومن زنزاتته الانفرادية التي أقسم سجنانه أن لا يغادرها إلا جثة هامدة، أو روحاً خاوية، وجسداً بلا عقل، يرسل رسائل التصبير والتثبيت.

فؤاد
الخفش

الصبر والجلد والقوة والإرادة والتحمل والثبات، وبريق النصر الذي يلمع من عينه، التي تخترق صباح مساء جدران زنزاتته الانفرادية، التي فصلها المحتل له بالخصوص، ترسل برقيات التصبير لنا ولذويه ولمن أراد أن يرسم صورة الوطن، الذي لا تحاصره جدران، ولا تهزمه عصا السجنان.

أحمد المغربي حكاية فلسطينية بامتياز، وصورة ناصعة البياض للمقاوم والثائر لمن حمل البندقية والتحق بالجامعة وأسس أسرةً وبيتاً.. لمن عرف حدود فلسطين، لمن عرف لغة التفاهم مع المحتل، لمن هبّ لنصرة الأقصى في انتفاضة الأقصى، فقاتل بجلد وما وضع السلاح، وما رفع الراية البيضاء؛ لأن الحرب من وجهة نظره كر لا فر فيها.

من رأسه لأخمص قدميه مصاب بالرصاصة والشظايا، التي كانت تلاحقه إلى أن استطاع العدو الوصول إليه وتقييده وسجنه واعتقاله، ومن ثم أسرته وتعذيبه، فصبر وثبت وتحداهم في جولات التحقيق بدل المرة ألف مرة، فانتصر عليهم، وقال لهم: نحن أصحاب الحق وأصحاب الأرض.

أقسم له محققو الشباك أنهم لن يتركوه، وأنهم سيدمرونه، وأنه سيكون أسير زنزانة انفرادية، وأنه سيخرج منها دون عقل ومجنوناً يتحدث إلى نفسه، فضحك واستهزأ بهم، لم يشأ أن يشرح لهم معادلة الحق والقوة ولا نظرية الإيمان والعقيدة والفكر في مواجهة الطغيان والباطل، قال لهم: الأيام دول.

أحمد المغربي حاكمه سجانوه بالمؤبد ثماني عشرة مرة فضحك للحكم الذي صدر بحقه، واستهزأ بالقاضي، وقال له: إن الحكم إلا لله. ومضى إلى زنزاتته الانفرادية التي ما زال فيها من تاريخ اعتقاله في 27/5/2002م.

لم أباغ حينما قلت: إن حكاية أحمد هي حكاية فلسطين كل فلسطين فيها رسم الناثر خريطة الوطن.. أحمد الذي تزوج في 24/12/2001 وبعد ثلاثة شهور هُدم المنزل، الذي جمع الزوجين، وأصبح أثرًا بعد عين.. هدم المنزل وطُرد الزوج، وباتت الزوجة هنادي تبتهل إلى الله أن يحمي زوجها، وألا يمكن المحتل منه، وما إلا خمسة شهور أمضتها الزوجة بعيدة عن زوجها المطارد دون منزل حتى اعتقل الغدائي الناثر.

شهور قليلة أنجبت زوجة الأسير الناثر ابنها البكر محمود، متحملةً آلام المخاض وحدها، وزوجها يتجرع كأس المهانة من عدوه، زوجها يُعذب ويُشبح ويُضرب، وهي تُكابد آلام المخاض، وأنت تلك اللحظة التي صرخ فيها محمود معلناً قدومه للحياة فائلاً: الناثر لا يموت، وراية الفرسان لن تسقط... شهيد يسلم فارساً.. وأسير يلد ناثرًا.

لك أن تتخيل أن المرة الأولى التي تمكّن الناثر أحمد أن يرى ابنه الصغير كانت بعد ثلاثة أعوام من ولادته، يكفيك أن تضع نفسك مكان هذا الأسير المعزول في زنزانة انفرادية لا يعرف رسم ابنه ولا شكله ولا صوته، أبيض أم أسمر يشبهه أو يشبه أمه، طويل أم قصير، لا يعرف عنه شيئًا.

في كل ليلة يتخيله بشكل، ويرسم له صورة، ويسمح لخياله أن يرسم له ما شاء من صور، وأن يصوره كيف أراد، إلى أن أتت ساعة الزيارة بعد ثلاثة أعوام أتاها ذلك الطفل الصغير، وقد جهزته أمه بأجمل لباس، وصففت له شعره، ولقنته بعض الكلمات التي تعلم أنها ستلج صدر أبيه، نظر إليه أحمد فشاهد فلذة كبده تمشي على الأرض، الخجل يسيطر عليه، وإجراءات الأمن تملأ جنبات المكان، ومحمود الذي لا يعرف أباه حتى الصورة التي تعلقها أمه في غرفته غير الحقيقة، تقدم لأن هناك من كان يقول له هذا أبوك.

وقف الأب أمامه وفي صدره نار تشتعل، وقوة قادرة على تدمير الزجاج الذي يحول بينه وبين كبده بيتسم له يضع الطفل السماعة على أذنه، ويسمع كلام أبيه ولا ينطق ببنت شفه، يقول له أنا بابا محمود حبيبي أنا بابا، أنت تعلم أي أنا بابا، أنا بحبك محمود بدي اشترى لك هدايا، كيف ماما؟ محمود لا يحرك ساكنًا، حاول وحاول أحمد المعزول أن ينتزع كلمة واحدة من محمود ولكن كيف لطفل لم يتجاوز الثلاثة أعوام تعرض لتفتيش قاسٍ أن يعرف من هو أمامه، وأن يبادل المشاعر والحب بحب.. صمت أحمد وبدأ يتفقد جسده من خلف الجدار السميك لباسه عيونته حذاءه شعره عيونته لسانه الذي كان لا يخرج من الخجل.

بيتسم له يحاول أن يثبت نفسه، يهدئ من روعه، وأخيرًا ابنتسم محمود لأبيه، وقال له: بابا أنا أحبك، نار اشتعلت في قلب الرجل، ودموع تلالأت من عيون الناثر، وغصة بالصدر حدثت، وإذا بصوت السجان يخرج معلناً انتهاء الزيارة.

ذهب محمود، وعاد أحمد يجلس في زنزانيته يغمض عينيه وأذنيه لكي يثبت صورة محمود وصوت محمود في ذاكرته.

هذه حكاية فلسطين ومشهد صغير من حياة الناثر المعزول منذ اعتقاله، والتي تجاوزت الأعوام الثمانية، تمكّن مرة واحدة من رؤية والدته، ولم يسمح للزوجة الصابرة من الالتقاء بزوجها المجاهد ولا مرة، والتي هدم منزلها مرتين؛ لأن المحتل لم يشف غليله من أحمد بعد هدم المنزل مرتين، وحكمه بمدى الحياة وعزله الانفرادي، وحرمانه من رؤية ذويه، كل هذا لم يشف غليل الاحتلال.

هي حكاية فلسطين يرسمها الناثر أحمد بصبره، وصبر زوجته التي تحدث الصعاب، وأكملت دراستها العليا لتحصل على الماجستير، وتربي فلذة الكبد، وتعلن أنها صابرة مصابرة متمسرة في انتظار أحمد؛ لأن فجر حريته بات قريبًا.

اعذرني أحمد لأني لم أوفيك حقك، ولكنها أنات من سمع عنك ما يجعله يشعر بالفخر والافتخار؛ لأنه من وطن فيه أمثالك من الرجال الذي عشقوا الوطن دون انتظار مقابل.

* كاتب وباحث مختص في شؤون الأسرى الفلسطينيين

